قانون مولاتى

بالمقابل جلست شجر الدر.. تنتظر فراغ الطبيب من إفراغ الدواء فى حلق الصالح نجم الدين أيوب، ظلت أصوات تأوهاته تخرق مسامعها وهو ينازع الموت والحياة والدواء والطبيب .. كان وجه الطبيب ينطق بكل شىء عرفت أن لا فائدة .. أسرعت فأمرت الطوشى محسن بالتحفظ على الطبيب وإمرته إن نطق بحرف، أن يفصل رأسه عن جسده، جلست وقد تمالكت زمام أمرها تقرأ القرآن على رأسه .. كان الصالح يغيب ويعاود اليقظة ويفتح عيناه ليجدها لازالت تقرأ ويبتسم .. غالبت دموعها وهى تراه يومئ لها بالاقتراب منه، كان الصالح نجم، قد أنهى لتوه جولة أمام مرض الموت، تحطمت فيها اسواره وانسحب ماء الحياة من وجهه وجسده، اقتربت، اختطلت أنفاسهما، أنفاس فارس قد قطع الجهد والتعب كل قدرة لدية على رفع يده للدفاع عن نفسه، أنفاسها وهى تأخذه فى صدرها لتوسده قبل وسادة القبر، فى همس قال: أموت الآن يا شجر ولويس على أعتاب المنصورة والحرب فى ذروتها ما أشد شقائي، يا رب قد رضيت يا رب انصرهم على لويس. قالت تواسيه : تنتصر بإذن الله ويشفيك الرحمن الرحيم قال قاطعاً حازماً أمره : إنى مفارق الساعة .. فإذا قدرت على لويس فثأرى

لقتله الأطفال والغلمان فى دمياط وحرقه النساء الحوامل فى مراجل الزيت وإفساده الحرث فى الأرض، لاحقته بعبارة : أفعل أن شاء الله وكان لا يزال يقاوم : فإن استسلم قبل أن تقدرى على قتله فأذيقيه الذل والهوان فوالله لا يذل ملك إلا ملكه ولا يكسر شرفه كفارس إلا أن يعامل كمجرم وحقير. قالت : ذلك عهد الله على ذلك . كانت تشعر به يقاتل اقتراب الموت منه . قال : إلى بأوراق ودواه وارفعى المصباح حتى أرى النور على صفحاتى . أسرعت شجر الدر فأحضرت أوراقًا ومدت إليه الريشة والدواه وقد واتته القوة .. فأخذ يوقع الأوراق .. وأدركت أن صحوة الموت أدركتهُ وعزمت ألا تراجعه فى وصاياه الأخيرة أياً كان ما يكتبه!.. وصال بريشته وجال على الصفحات وبلا درع وبالريشة قاتل الصالح نجم الدين . الفارس والسلطان والإنسان. معركته.. فهوت الريشة من يده وانسكب المداد وهو يردد قول الله تعالى : (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى العَذَابِ المُهِينِ)* .: فى صمت ودعت رفيق حياتها وارقدته فى اتجاه القبلة .. وراحت تحصى الأوراق التى حملت فى معظمها توقيعه السلطانى على بياض .. ماذا تقصد من ذلك يا صالح .. إن أملأها أنا .. كان بعض الأوراق يحمل بخط يده توجيهات عامة للجيش المحارب بالطريقة واللغة التى اشتهرت عنه وعرفها فرسانه ومماليكه .. والبعض الأخر يحمل التفويض لفرسانه بالاسم فهذه

لأقطاى وهذه للأمير فخر الدين قائد الجيش . فذالك لقائد الحرس بيبرس البندقدارى وقد ترك تفصيل التفويض فارغاً وكأنه يترك باقى الأمر السلطانى لها نفسها تملأه بما تريد وحسب مقتضى الموقف .. كل الأوراق لا تحمل وصية لأحد .. لقد كان الصالح لا يزال يحارب ويصدر الأوامر لجنوده وهو ميت .. عرفت أنه لم يمت .. وأن عليها أن تحل محله وتأجل إعلان خبر الوفاة .. حتى الوقت الذى تأكل فيه دابه الأرض عصاه .. نعم لقد كان يقصد هذا ولم يكن ليحكم وهو ميت إلا من خلالها كتمت عن صدرها الحزن .. فقد احكمت غلق الأبواب، يموت الصالح ولا تنوح عليه، ظلت إلى جواره حتى الصباح وقد تماسكت تماماً، فاليوم تفقد الزوج والحبيب بعد ان فقدت ابنها منه من سنوات قليلة، يومها بكت بشدة، واليوم تأخذها الرعدة من شدة سلطانها على نفسها ألا تبوح أو تنوح....؟! وعندما مثل قائد الجيش الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ وطدت العزم على الا ينال من ارث الصالح شيئاً، فدفعت له بالأمر وقالت : إن مولاك الملك الصالح نجم الدين أيوب يأمرك أن تصلى عليه صلاة الجنازة وألا تعلن وفاته حتى تقتل جيش الغزو وتدحر لويس وقد ذكر قبيل وفاته الأطفال القتلى والنساء الحرقى آثر تخليكم عن دمياط للغزاة بلا قتال ولو ليوم وكأنها غرست فى جنبه سكين استبد به الألم وقام وهو يقول : مولاتى تعلم انى ما جبنت ولا تخاذلت أمام لويس ولا فررت أريد النجاة .. قالت بتحدى : (حقاً .. فماذا كان إخلائك لجنودك ..

وعودتك لمعسكر المنصورة مسرعاً .. أحسبت أن السلطان مات وأن لحظة الوثوب على كرسى السلطنة قد حانت إذا شئت يا فخر الدين فالأمر أمامك والسلطان مات حقاً هذه المره) . ولم يكن الأمر فرصة تنتهز ولكنه عار يثبت عليه فأسرع يقول : مولاتي، أقر بدم القتلى فى دمياط وانه فى رقبتى .. ويعلم الله إنى ما خذلتهم ولكنه قدرى لأننى قائد الجيش .. أما العرش فلست بطامع فيه .. ولك ان ترى أخلاصى لمولاى حياً وميتاً فانظرى ما تأمرى به اطيعه واناصرك .. فرغت صلاه الجنازة .. كفن الصالح فى جناح الحريم ولم يشعر بهم احد .. كانت شجر الدر قد احكمت امرها على وصيفاتها حتى غدوا كتيبة من الجند فى خدمتها مثلها مثل الصالح مع مماليكه، شغوفه بأصطناع الأتباع وطاعتهم لها، فى الليل رحل قارب صغير على صفحة النيل للقاهرة يحمل جثمان الصالح ليستقر بقصر الروضة بالجزيرة.. وفى الصباح التالى استدعت فارس الدين اقطاى وإلقت إليه كتاب الصالح بأن يسير إلى الشام فيحضر ابنه (توران شاه) ونظر فإذا الخط والأمر والتوقيع بخط يد الصالح نفسه وكان مماليكه يحذرون فى أوقات السلم ان يدس عليهم أوامر منسوبة ومخادعة لسيدهم فكانوا يحفظون خطه ورسمه . هتف :: الآن فى قيظ المعركة ؟؟ واعتذر آقطاى عن المهمة وطلب أن يظل فى خطوط القتال.، فصرخت فيه :: أتريد أن يموت الصالح فجأة فيثب فخر الدين للعرش؟! كانت قوية فى صراحة الخائف من حدوث ذلك ولما تمثل له فخر الدين وقد جلس مكان سيده، صرخ : لا .. لا ..

سأرجل من فورى للشام .. قالت وهى جادة : (عد سريعاً يا آقطاى فالحرب لن تنتظر ولويس يزحف ليعبر بحر اشموم وسوف يحاصر المنصورة عاجلاً، وحرام أن لا يقف فارس مخلص مثلك فى الدفاع عن دين الله) وحين تجهز فارس الدين آقطاى للرحيل، جعل بيبرس البندقدارى يقسم امامه على ألا ينسحب من المنصورة أبدا مهما كانت الأوامر والمظروف ...!

❖ ❖ ❖

استدار (روبرت دى ارتوا) أخى لويس التاسع ملك فرنسا فإذا هو على مشارف القصر السلطاني؟ وكان قد عبر بحر اشموم بعشرة ألاف فارس .. طليعة الفرنسيين وخيره فرسانها .. كان فخر الدين قد أعاق الجيش الفرنسي أكثر من خمسين يوماً، فأحرق ابراجهم ودمر جسورهم واحتفر الأرض كلما ردمو الأرض ناحيتهم فلم يمكنهم من العبور إليه وقد حصن المنصورة من كل الجهات فما كان منهم إلا أن عبروا عند قرية سلمون فقد كانت المخاضة تسمح بعبور الفرسان دون المشاة أو الآلات والأبراج الحربية وثب فخر الدين على حصان وهو نصف عارى وكان يعد نفسه لصلاة الفجر، كان يحسبها غارة من فرسان الداوّية غير أنها كانت دورية استطلاع للعدو وبسرعة جمع فخر الدين باقى أفراد الجيش ليقطع عبور جيش الفرنسيين من التدفق، غير أن كونت ارتوا كان قد قسم فرسانه إلى قسمين . وكان من نصيبه

القسم الثانى الذى هاجم به قصر السلطان، أسقط فرسان القسم الأول الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ قتيلاً بعد أن حاصروه هو ومن بقى معه من جنده بين منطقة العبور وقلب الجيش السلطانى المنشغل بالهجوم، وحسب الكونت أن الطريق أصبحت مفتوحة ، للاستيلاء على القصر والسلطان نفسه وأسره كان بيبرس قد تلقى أمراً سلطانياً بالا يتراجع قيد أنمله، وحين أراد إخلاء الحريم، قالت له شجر الدر، لا احد فى حريم القصر يمكن للفرنسيين حرقهم فى قدور الزيت، كانت قد وطدت العزم على قتل من تجرؤا منهن على الهرب من القصر، أمسكت جواريها السيوف عند الأبواب، وظل الطريق مفتوحاً حتى حدود قصر السلطان حين انشقت الأرض عن الجنود فامتلأت الساحات بالقتلى والجرحى، ونظم بيبرس الصفوف جيداً وشتت ارتوا فرسانه بمحاولاته فتح ثغرة فى استحكامات الحرس السلطاني، غير عابئ بخسائره الجسيمة وأخيراً سقط قتيلاً وداسته أقدام الخيول وتفرق جنده محاولين الخروج من المدينة، تفرعت بهم السبل وسط الأزقة والحارات فصبت العوام عليهم قدوم الزيت المغلى ورموهم بالحجارة حتى قتل معظم من دخل المدينة وتولى الحرس السلطانى مطاردة الباقي، أحبط فخر الدين قبل استشهاده وصول باقى الجيش الفرنسي، وتمسك الباقون بهذا الموقف وقتل الألوف وفى نهاية اليوم(يوم الكبسة) قتل الأمير ارتوا أخى الملك لويس القديس واستشهد الأمير فخر الدين أتابك عسكر السلطان وقائد الجيش،

وأصبح القائد بيبرس .. يدعى بطل المنصورة .. وفى نهاية اليوم يصدر الأمر السلطانى بجعل الفارس بيبرس نائباً عن قائد الجيش وينادى منذ اليوم باسم ركن الدين بيبرس ويطير الحمام للشام بأنباء دحر هجوم لويس عن المنصورة واستشهاد فخر الدين، فيصلى آقطاى صلاة الغائب على روحه الطاهرة ويخرج فى الفجر .. يريد مصر !

❖ سورة سبأ – الآية رقم (١٤)